



يميل المزاج العام للقوى السياسية السورية، في هذه الأيام، إلى القيام بمحاولات جديدة لتحقيق العمل الجماعي المشترك، ولتشكيل جسم سياسي موسّع، أو إطار ائتلافي جديد، وفق التعبير المتداولة في الوسط السياسي. وهذا ميلٌ له ما يبرره موضوعياً وذاتياً، فما زال العمل المشترك أحد أهم العوامل الضرورية للحل السياسي الذي يحقق مطالب السوريين المشروعة، وينهي مأساتهم المستمرة. ولكن هذا الميل الرغبي لم يكن كافياً في الماضي، لتحقيق هذا المشروع، ولن يكون كافياً في المستقبل؛ فالرغبة في هذا الموضع تصطدم بضعف كفافتها، وبعدم كفايتها، وبقصور منهجيتها التجريبية؛ فتكثر التجارب، ويكثر تكرار التجارب الفاشلة أيضاً. ولذلك لا يزال التساؤل القديم الجديد بشأن أسباب تكرار الفشل في تشكيل صيغة تعاونية متجانسة سؤالاً محورياً ومنطقياً.

ويمكن أن نعيد صياغة هذا السؤال، ليتناول تحديد ما يجب أن يتغير في ذهنية العمل السياسي السائدة، لكي يتم تجاوز هذا الفشل المتكرر. تحمل هذه الصياغة الثانية إشارةً تنتهي إلى جنس الجواب، وتضع الذهنية التي تحكم التفكير السياسي تحت المكابر، لتبأ محاولات الإجابة الأقرب إلى المنطق، استناداً إلى نقد الذهنية التي تقع خلف السلوك والتجارب السياسية. ويبدو أن هذه الذهنية كانت واحدةً في كل تجارب المعارضة المشتركة، وكانت الثابت في معادلة المقدمات والنتائج السياسية لقوى المعارضة السورية. ومن أهم المتغيرات في هذه المعادلة: الزمن، والسميات، واللاعبون، والداعمون، وربما السلوك والخطاب، والمواقف السياسية لهذه القوى نفسها، لكن الذهنية ظلت دائماً ثابتة.

لذلك نرى أن التوقف عند ماهية هذا الثابت أمرٌ ضروري ولازم. ونقارب مفهوم الذهنية هنا بوصفه منهجية فهم عميقة ثاوية في الأفراد والمجتمعات، تستخدم لمقاربة مختلف القضايا والمسائل. ومن الممكن أن تغيير السلوكات (وربما القناعات)

بتغير المكان والزمان اللذين يحكمانها، وتبقى الذهنية ثابتةً، وعصيّةً على التغيير من دون انفصال يقتضي عن الذات، تمهدًا لمراجعة عقلانية موضوعية لها. هذا يفسّر عدم تطابق الآراء والمقاربات المنشورة في وثائق بعض القوى السياسية وبياناتها، مع آرائها وموافقتها وتوجهاتها التي تعلنها في المجتمعات القوى السياسية المشتركة؛ حيث يعود ذلك إلى طغيان النمط القديم الموروث على النمط الحديث المكتسب، فيتم قمع الثاني أمام الجماعة لغرض الفخر، لأن الموروث ما زال المصدر التقليدي الراسخ للفخر.

وفي محاولةٍ لتحديد بعض ملامح هذه الذهنية، نعزل بعض مرتكزاتها التي نعتقد أن التغيير يجب أن يطاولها كشرط أساسي لتفكيرها، وهي كالتالي:

أولاً، المنهجية الطائفية: يتم فهم الوطن، وفق هذه المنهجية الثاوية في أعمق الشخصية، بوصفه مجموعةً من الطوائف. ويقارب أصحاب هذه المنهجية مفهومي "الـ"نحن" والـ"هم" وفق منطلقاتٍ طائفية لا يستطيعون تجاوزها (وهذا في العمق ما تشير إليه كلمة "مكونات")، ومن ثم يبنون تحالفات باطنية وثيقة ضمن الجماعة الطائفية، حتى ولو لم يتقاطعوا سياسياً معهم، وأخرى شكلية ظاهرية مع المختلف (الآخر)، حتى لو تطابقت التوجهات السياسية. ويسعى هؤلاء، في الغالب، إلى الوجود ضمن أكبر عدد ممكن من التشكيلات، غير مبالين بتناقض منطلقاتها أحياناً.

ثانياً، المنهجية الإثنية: ما ينطبق على الطائفة ينطبق على أبناء العرق والإثنية الواحدة، ومقارباتهم "الـ"نحن" والـ"هم" ، فيغلب الانتماء العرقي والإثنى على الانتماء السياسي، ويصبح الأشخاص (والكتل العرقية) موتورين ومتعبسين، يتذرون بمفهوم "القومية" البريء مفهومياً من هذا التوظيف براءةً مطلقة. ولا يرى هؤلاء في الشخص إلا عرقه المحدد قبل ولادته، ولا يستطيعون رؤية محمولاته الوطنية إلا شكلاً. بل يترجمون كل مقاربات "الآخر" وفق انتماء عرقي أو إثنى، يرفعونه إلى مرتبة المقدس الذي لا يمكن وضعه على طاولة النقاش.

ثالثاً، المنهجية الأيديولوجية: هذه نظارة تجعل صاحبها يرى الحياة والأشياء بلونها، ومهما اختلف المنظور وزاوية الرؤية، يبقى اللون بالنسبة له واحداً. تجده يبحث جاهداً عن التغيير، لكنه لا يستطيع الفكاك من ظاهرة اللون الواحد. أكثرهم ينتمون إلى أحزاب كلاسيكية مؤدلة، لم تتمكن من مجاراة التطور التاريخي. على الرغم من قناعتهم بضرورة التطور، إلا أن منهجيتهم القديمة لا تسعفهم في إنجاز ذلك.

رابعاً، الذاتية المترورة: ورم يصيب الذات، فتؤمن بأنها مركز الكون، والوحيدة التي تستطيع التفكير، والتحليل، والعمل في السياسة، وعلى الجميع أن يكونوا تلاميذ أو أن ينفذوا التعليمات من دون نقاش. ويُسخر هؤلاء المرضى معارفهم الظاهرية، أو تاريخهم النضالي، في تعزيز الجهل العميق، وتعزيز الأنانية والسلوك المتعالي. ذلك بسبب فهمهم البدوي لفردانية، وهو الفهم الذي يأخذ على عاتقه إتمام عملية "بدونه الحادثة". وقودي هذه المقاربات المشوهة إلى الاستعلاء والاستعراض الطاووسي والأستذة" التي يتم سترها بمصطلح "النقد".

خامساً، الواممون: هؤلاء أصحاب أحلام يقظة يريدون وقعتها يوتيوبياً في واقعٍ مُتخيل، ولذلك لا ينجذبون شيئاً خارج الاستعراض، وبعض النجاحات المؤقتة، قبل أن يصطدموا بالواقع الملموس، فيعودوا إلى صناعة سيناريو جيد لأحلامٍ جديدة.

هذه بعض الركائز التي شكلت خليةً منهجيةً غير مرئية، تحكمت في آلية صياغة العمل المشترك سابقاً، وأنتجت تشكيلات عقيدة بالمعنى السياسي. والمستهجن اليوم هو إصرار بعضهم على تكرار هذه التجارب نفسها، من دون إجراء أي مراجعاتٍ أو تغيير في الذهنية الثاوية في الفكر السياسي. ولا يتم إنجاز هذا النوع من التأسيس بـ"كبسة زر"، بل ببذل جهدٍ كثير، وبالتفكير، وجهاد النفس، والتدريب، والتواضع، وخصوصاً أنه يتم في وضعٍ استثنائي من مستويات الإجرام والهمجية التي

تعمل هذه الذهنية على مستوى مجتمع القوى السياسية، من خلال منهجية الإصرار على التوافق، وصهر الآراء، بحيث يتغدر تمييزها بعد الصهر؛ فبitem استثمار الوقت والجهد في البحث عن المشتركات والتوفقات، أو في تلقيها، بوصفها ضرورةً للعمل المشترك. وفي الحقيقة، لو كان البشر، ومن ثم القوى التي تمثلهم، متجانسة ومتوافقة، لما كان للديمقراطية أي معنى، ولما كانت مفهوماً تعتد البشرية به، فالحاجة إلى الديمقراطية هي الحاجة إلى ضمان التعدّية على مستويات الحياة كافة. ما تتطلبه المرحلة هو توحيد المسار السياسي في لحظة معينة، وهذا لا يشترط توحيد القوى، ولا يشترط اتفاقها أو تطابق مقارباتها، ولذلك نطرح تركيز العمل في كيفية بناء موقف سياسي مرحلي مشترك، يمكن أن ينتج خططاً وطنية طويلة الأمد، بدلاً من التركيز في المشتركات والاتفاقات. ولا نرى في الأخيرة أولوية سياسية، على الرغم من أهميتها.

يقودنا هذا المسار إلى تصور ملائم بمنتهى ذهنية جديدة، تؤصل لـ"أسس العمل الجماعي السليم المتجدد"، هي الذهنية التي تجعل المتعاونين يعترفون بتمايزهم، ولا يسعون إلى صهر أنفسهم، ولكنهم ينسجمون سياسياً من خلال الاتفاق على المسير في اتجاه واحد، في لحظة سياسية معينة، وهذا سيكون جوهر التعاون المرحلي بين القوى السورية. وهذا هو مُنطلق التفكير في السياسة والتنظيم، والأهم في بناء ما يمكن تسميته "المشروع السلوكي المشترك"، والذي يعمل على تسهيل مهمة السوريين في بناء عقد اجتماعي عصري، ودولة وطنية حقيقة، فالوحدة مرادفة لـ"ضمان التعدّية" وفق المبدأ الديمقراطي، ومرادفة للصهر وللتجانس وفق المبدأ الشمولي الديكتاتوري، ومبدأ الطغم الحاكمة.

المصادر:

العربي الجديد